وجوه.. فى سانت كاترين

محمود شفيق عبد اللطيف

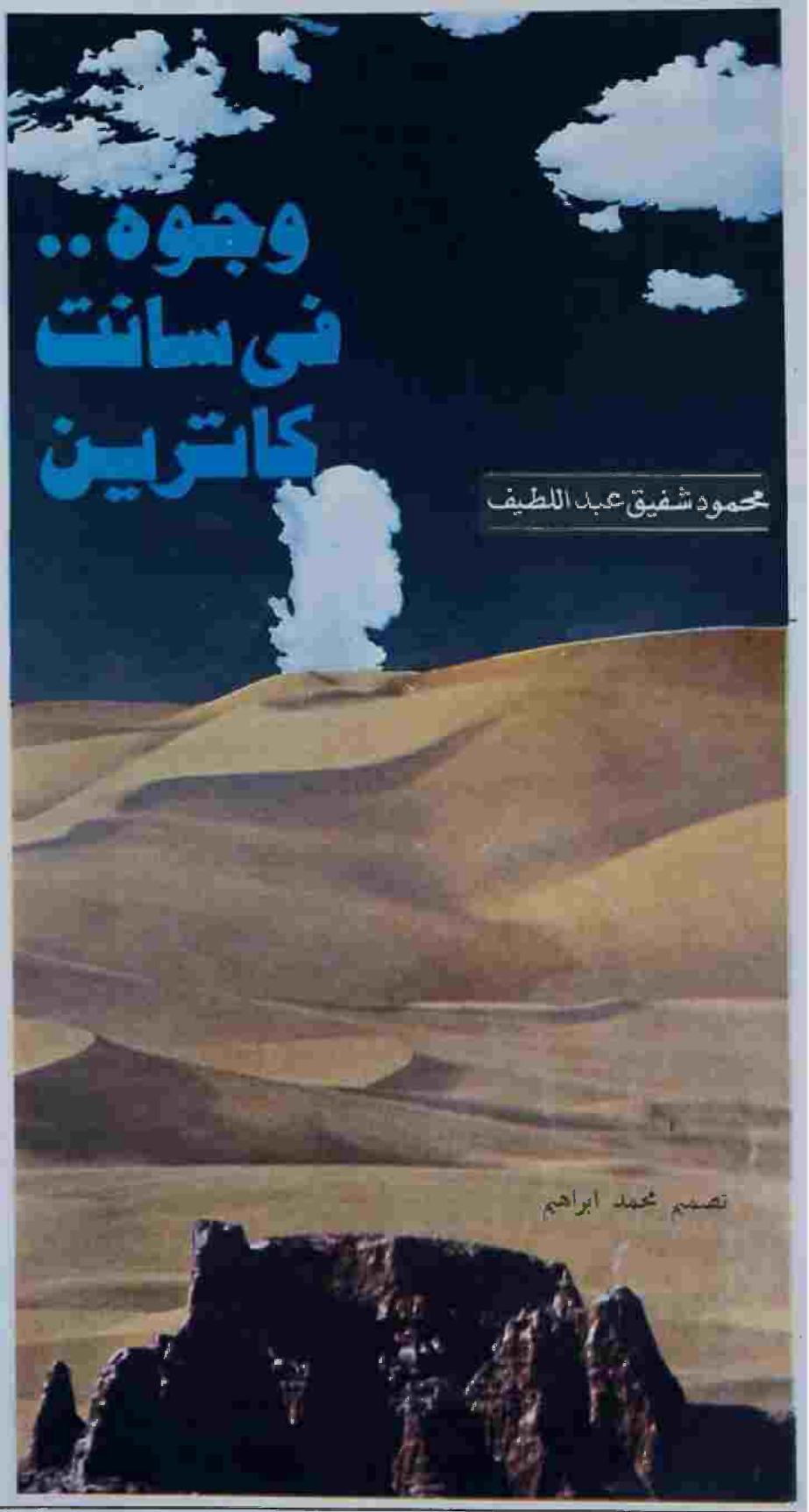

تصميم محمد ابراهيم

صمت على الصحراء.. وأطبق السكون فى جنبات التلال والوديان.. وترامى الجبل شامخا فى هدأة الأبدية.. كل هذا بدا واضحا أمام الشيخ المسن الذى ناهز الثمانين وهو قابع فى بيت متهالك مع زوجة عجوز ذهبت السنون ببصرها.. فلزمت باب الدار طيلة النهار لاتحدث إلا عن بنيها الذين راحوا فى حومة الوغى وسط اصطلاء الحرب بنار العدمية الموغلة فى الفناء..

إن الشيخ «سالم أبوسنة» هو الذى لم يرد أن يبرح المكان برغم ماصبه اليهود عليه من نيران.. إلى جانب الحصار المستمر.. فقد ظل يجسد معنى الإصرار لأولاده الثلاثة على أن تراب الأرض هو الخالد فى تاريخ الأبدية.. والإنسان جاء من التراب وسيعود اليه.. فاخلود فى رؤية الشيخ «سالم أبوسنة» خلود معنوى أساسه حسى..

لم يقتل ذلك الصمت عند الشيخ سالم إلا ساعات يقضيها مع الراهب الطاعن فى السن «دانيال» راهب الدير.. حيث يجلسان معا يتحدثان عن تاريخ المنطقة.. وكيف وفد رهبات القديسة «سانت كاترين» إلى المكان عنا عن الأنام.. فى جوف هذا الصمت..

كان الشيخ سالم ودانيال نباتيين.. يعيشان على القليل من الطعام والشراب مواظبين بالحركة والتنقل حول المكان مستذكرين تاريخ الأنبياء السابقين وسيرهم.. فكانت لهما آراء فى الواقع والتاريخ.. ولى أوقات العبادة يؤم كل منهما مسجده أوكنيسته.. حيث تتجلى القلوب مع خشوع المكان ورهبته.. وكانت «مارى» الراهبة ترافقها إلى حيث يكون المجلس فهى سيدة.. جاوزا بحق لجاعيد السنين.. فقد ناهزت السنين والدت الدير.. تدمع عيناها حين تتذكر فى مجلسها القديسة.. وتكاد تغيب عن وعيها لحظا ووهنة من صاحبة الدير.. لجدها لا تتحدث كثيرا.. تسمع أكثر مما تتكلم.. وهى التى ترافق زائرات الدير من الوافدات اليه من جنسيات مختلفة تشرح لهن قصة حياة القديسة.. وسبب قدوم جدتها إلى هذا المكان النائى عن العمران.. القابع فى جوف الصحراء..

□ □ □

وترامت عبر الأفق خيام البدو التى انتشرت عند بطن الجبل.. وبدت الإبل وهى ترعى فى السهول المجاورة بينما قبعت الأخرى على مقربة من الخيام وراح الصبية يمرحون والنسوة ينشطن فى جمع الحطب.. إن المكان يموج بالحركة الدائبة..

□ □ □

وقطع صخب العربان وحركتهم وصول سيارة نزل منها رجل وسيدة.. وراحا يتأملان وجوه الصبية حتى أقبل «حمدان» وهو رجل فى الخمسين تفاهم معهما بالإنجليزية التى يحسن التخاطب بها.. فأخبراه بسبب قدومهما إلى هذا المكان النائى النعزل..

إن «حمدان» أعراقى من البدو كثيرا مايرافق السياح القادمين إلى المكان ليشرح لهم تاريخ المنطقة كما يرافقهم إلى حيث يريدون سواء إلى المسجد.. أوكنيسة سانت كاترين..

□ □ □

أخذت السيارة تسير ببطء قاصدة الدير.. ولم ينقطع حديث «حمدان» فما عن المنطقة.. وعن المدرسة الصغيرة

التى أقامتها مصر . وهى المدرسة التى يدرس فيها العديد من شبان العالم علوما عن طبيعة المكان . جوه . وجغرافيته . وجيولوجيته . المدرسة متواضعة المبنى . تقوم فى حضن الجبل . وعلى مقربة منها توجد خيام لإقامة المدرسين نهارا . وتوقف الرجل ليتعرف على هذه الحقائق التى لم يألفها من قبل .

□ □ □

ثم قادهما « حمدان » إلى الدير . . وتوقف الرجل وزوجته مشدوهين . . وقد غابت نظراتهما فى هذا البناء وما حوله . . وكأنهما يقولان أشياء وسط هذا السكون المطبق على المكان . . وغاب « حمدان » دقائق ليعود ومعه « الراهب دانيال » ذلك الذى جذح القادمين بنظراته . . لكن سرعان ما دار الحديث . . ثم توجه الثلاثة إلى الاستراحة ليجلسوا الساعات بعد أن رجع حمدان الذى انتهت مهمته .

ظل الحديث واقعيا عن أمور شتى . . نسى فيه « ريمون » و « ماريان » الوقت الذى يمضى بسرعة وسط أحداث الذكريات . . فقد قدم « ريمون » وزوجته « ماريان » إلى المكان بحثا عن الغلام المفقود « آرى » ذلك الذى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما وتركاه فى إسرائيل منذ عشر سنوات بعدما مرا من الحياة فيها . وكانت لسبب قرارهما قصة . أثارت دهشة « دانيال » الراهب . . هذا إلى جانب الرغبة النفسية لزيارة الدير والأماكن الأثرية . . وأشياء سيبنى عليها المستقبل .

قال « ريمون » . . — لقد خرجت من إسرائيل منذ عشر سنوات . مع زوجتى اليهودية هذه « ماريان » . . أنا مسيحى . . وهى يهودية . . تزوجنا وغادرنا بولندا إلى اسرائيل للعمل بالسياحة . . إلا أنه لم تكن للحياة معنى . . فقررنا مغادرة البلاد . . لكن دون جدوى . . وأثارت قضية أمام المحاكم الاسرائيلية . . حاولت فيها تبرئة نفسى من اليهودية التى ألبستها فى السلطات هناك . . بحجة زواجى من يهودية . . وبما أن زواجى من يهودية قد حدث فإن ابنى « آرى » يهودى بالطبع . . وكان واضحا عدم رغبتى فى الإقامة فى إسرائيل . . لكن هناك عقبات وضعتها السلطات أمام مغادرتى للبلاد فقد فعلت الكثير نحو تطوير السياحة . . وحين شعروا بأنى أحرزت حقائق لأستثمر خيراتى خارج الحدود . . وضعوا العراقيل أمامى . فأضطررت إلى ترك « آرى » حتى أوافيهم بعودتى . . والآن جئت بعد تغيير الأوضاع لأبحث عن الغلام المفقود .

وبدت الدموع تترقرق فى عينيه من جديد . « ماريان » تلك التى تتوارى خلف نظارة سوداء كبيرة وصمت « دانيال » . . وأطرق برأسه . — حقا . . لقد أتيتما مع شمس يوم جديد . ولكن . . ماذا تقصدان بعد ؟ . . قال ريمون سنوجه إلى قرية « دبجونه » فى الشمال . . نحن نعلم أن آرى هناك . .

وسحبت « ماريان » يدها من يد زوجها . . وتحولت بعينها على امتداد السور الكبير . . كان الحديث يدور عن الماضى . . وفاجأت « ماريان » بأنها يهودية . . قالت ماريان — هل جئت إلى الدير لإخفاء يهوديتك . . قالت ماري — أنا لا أخفى يهوديتى . . شىء واحد أحب أن أوضحه لك يا ماريان . . هو أن اليهودية دين كباقى الأديان . . لكن الصهيونية هى التى تشوه قدسية اليهودية . . أمثالى هم اليهود الخلص الذين يفهمون اليهودية كدين . . بعيدا عن التعاليم الزائفة . . قالت « ماريان » — وأنا أيضا أعتقد أن اليهودية ليست بالقيود المفروضة فى حاجز جيتو غيتو . . لهذا فضلت أن أتزوج من « ريمون » وهو مسيحى وأن أثبت جو السماحة والحب . . والتعايش مع الآخرين . . إنى أحمل فى نفسى عقيدة جماليا السيدة التى انتحرت أمام وطأة العمل المرهق . . بعد أن فقدت زوجها وولديها فى الحرب . . فقد حاولت أن تتقرب إلى « جامعة » حراس الديانة اليهودية لكن دون جدوى . . وأمام ضيق الحياة فى غيتوها فضلت الانتحار . . لعن الله الحرب . . وحالة الحرب . وقالت ماري — لكن . . هل هناك أمل فى لقاء « آرى » . . ؟

قالت — أجل . . إنه يعيش فى قرية دبجونة فى الشمال . . هناك أحد اليهود السود يؤويه عنده . . فى مزرعته الصغيرة . . لكن المشكلة أن « ريمون » لن يستطيع الذهاب معى إلى هناك . . لأنه يعانى مرضا وأخشى أن تفاجئه الأزمة . . — ولكن مع فتح الطريق . . تستطيعين يا ماريان الذهاب إلى هناك . . إن هذه المنطقة كما تعلمين تشرع التجول فيها . .

— سأحاول الوصول . . وبأى ثمن .

□ □ □

كان الجو صحوا . . والصحراء صامتة هادئة . . وقد بدا « دانيال » و « ريمون » و« ماريان » وهم يتجولون فى المكان . . وحلق بهم الشيخ « سالم أبو سنة » . . وكان الحديث يدور حول مستقبل المنطقة . . فالشيخ سالم شخصية معروفة لدى القبائل المستقرة والرحل . . وهو يؤمن بالتمسك بالطبيعة فى كل شىء . . حتى فى التداوى من الأمراض . . كما أن رصيفاته كثيرا ما تفوق الأمراض المتنوعة . . فراق حديثه لريمون وماريان . . وكانت « ماريان » تسأل عن كل شىء . . حتى عن معنى الحب ومفهومه فى هذا المكان المنعزل . . وكانت إجابات الشيخ واقعية . . إن الحب هنا طبيعى . . غير ملوث بالمصلحة . . أو المنفعة . . فالناس هنا يتعاونون فى هدوء وملء حفنوبهم . . وحنون تملأ قلوبهم . . فالحب هنا روحانى بحت . .

والتفت بهم « حمدان » ذلك الرجل الذى يرافق سياح المكان . . إنه رجل ممتاز بالمرح وخفة الدم . . واللباقة . . وراح كل ينظر إلى المكان من زاويته الذاتية . . ورصل وكيم إلى أطراف القرية حيث أوحى الليل لمدوله . . ودعاهم « حمدان » إلى منزله . . إنه منزل متواضع . . وبدت أصوات الغناء والطرب تنبعث من هناك . . على مقربة منهم . . وغابت « ماريان » و « ريمون » مع النغم الجديد . . ولا حظ « حمدان » فتصحبهما إلى الحلقة حيث شاهدا رقصات البدو وطربهم . . وهم حول النار الموقدة . . وكانت نظرات الفتية لا تفارق شعر « ريمون » وزوجته اللذين ظلا مشدوهين للغناء والطرب . . وجلوس الفتية على الأرض فى حلقة حول النار . . كانت نظرات « ريمون » تحمل أكثر من معنى . . إنها تفسيرات للناس هنا . . وللمكان . . ولمستقبل

الحياة هكذا . . إن كل السكان يؤمنون بالمحافظة على طبيعة البيئة . . لكن ربما تمكن إضافة شىء ما إلى هذه الطبيعة الخاوية . . ومال « ريمون » برأسه على زوجته التى تسمرت مشدوهة للغم . . وقال ماذا لو أقيم مشروع سياحى هنا . .

— كيف . . ؟ إن الحياة هنا محدودة يا ريمون . .

— سيكون المشروع مقاما على يد عرب المنطقة . . فالسياحة لا تتقيد بالبحار والأنهار والحدائق . . إن السياحة هنا سيكون لها طابع آخر . . هو معايشة جو المكان . . سوف يقبل على هذه المنطقة طلاب الراحة النفسية والجدية . . بل طالبو الدواء من كنوز الطبيعة . وأعتقد أن الشيخ سالم أبو سنة له رأى فى هذا المشروع يا ماريان .

— اعرضه عليه . . وعلى الراهب دانيال . . لكن المهم . . أن نتفق بآرى بأى ثمن . .

□ □ □

جلس ريمون « و » ماري « على سريريهما فى الفندق الوحيد بالدير . . وصمت الليل يسود المكان . .

وتناول ريمون صحيفة مصرية وراح يستمتع بعض كلمات كان قد تعلمها فى الجامعة العبرية منذ التى عشر عاما . . أما « ماريان » فراحت تنظر إلى النافذة . . وبدت شاردة الذهن حول مصير الشاب المفقود « آرى » وكيف الوصول إليه ؟ . . أمامها مشكلة تتجسد فى تحليلها هى . . أن « ريمون » لا يقوى على السفر ساعات إلى « دبجونة » فهو يعانى مرضا لا يتحمله مع تبعات السفر . . وألقت على مسامع « ريمون » هذا السؤال — ريمون . . هل سنعود إلى « تكساس » دون الوصول إلى « آرى » . . ؟

— ومن قال إننا سنعود إلى تكساس يا ماريان ؟

— هل سنبقى هنا ؟ . . وكيف ؟ . .

— لا أقصد . . سنقيم هنا حتى نصل إلى آرى بأى شكل . . بعدها نقرر متى سيكون السفر . . وربما سيكون مشوارا إلى تكساس قصيرا . . بعده نعود إلى هنا لشىء ما .

ومالت ماريان إليه وهمست فى تساؤل . . هل تستطيع أن ترافقنى إلى دبجونة ؟ . . إنى أخشى عليك من إرهاق السفر .

— أستطيع إذا كانت هناك طائرة . . وإلا فلا . . كما تعلمين . .

– سوف يصحبني «حمدان» في هذه الرحلة .. إنه لن يرفض .. أعتقد ذلك .. وسأجر الإجراءات ..

□ □ □

وبدت خيوط الغد تتجسد في خيالنا ونحن مستلقيان على فراش القلق طيلة الليل .. ولم يقطع تلك الخيوط إلا صوت الشيخ سالم أبوسنة وهو ينادي لصلاة الفجر من فوق المسجد .. وأحس ريجون بأن شيئا ما يوقظ مشاعره غير ذلك الهاتف الداعي إلى اليقظة من غفوة النوم .. إني الوقوف بين يدي الله .. إن هذا النداء يحمل معنى .. وقام ريجون .. وارتدى ملابسه .. ليلقي بالشيخ المسن على باب المسجد .. وراح يخاطبه في أمر ما .. ورد الشيخ قائلا – إن «حمدان» رجل شهم .. ولن يرفض مرافقة الزوجة إلى ديجونة .. إنه عمل إنساني ولن تكون هناك صعوبات بعد فتح الحدود التي أوصدتها غيبة العقل أكثر من ثلاثين عاما ..

□ □ □

كانت جلسة الشيخ سالم أبوسنة توحي بالأمل والاطمئنان .. فقد تجمع حوله أهل القرية .. وكانت آراء الراهب دانيال موفقة .. وتلاقى في مفهومها مع وجهة نظر الشيخ سالم من أن المنطقة ستكون نقطة سلام .. نقطة تحول كبير في الساحة السياسية .. ولأول مرة يفصح الراهب عن الأسى لأدوا بالدير من اليهود .. جاءوا فرارا من الحرب .. وقسوة الحياة .. وكان هذا التصريح مثار دهشة الحاضرين .. ومنهم «ريجون» الذي وقف ليقول على مسمع من الجالسين ..

– سيدي الراهب .. من منا لا يحب الحياة .. ؟ ! إن الذي يريد الحياة يسعى إليها في بطن الحيل .. إنني لم أشعر بوجودي إلا عندما أتيت إلى هذا المكان .. أحسست هنا بأني أراجع نفسي عن أخطاء سنين .. وعلى الآن أن أفعل شيئا .. من أجل الحياة .. لمن يريد الحياة هنا .. إنها حياة من لون آخر .. حياة تعايش الطبيعة التي خلقها الله هكذا .. ماذا تقولون أيها المسلمون .. ويا أيها الرهبان ؟ .. إن الحياة ليست ملازمة المسجد أو الدير .. بل الحياة أن نعمل من أجل غد جديد هنا ..

وقاطعه الشيخ سالم – لافض فوك يا أخي .. يقول الله تعالى «والأرض بعد ذلك دحاها .. أخرج منها ماءها ومرعاها .. والجبال أرساها .. متاعا لكم .. ولأنعامكم» ولقد كان النبي موسى عليه السلام يرعى الغنم لكافحين مدين .. وينشرون القرى ويحفرون الآبار .. انظر كيف فعل داود وسليمان .. لقد عمرا الأرض .. وكان عيسى عليه السلام يدعو للعمل .. والحب والتآخي .. اعقد نية في الأعماق .. وعلى الأرض السلام .. وبالناس المحبة ..

قال دانيال الراهب – إنك لم تترك في شيئا أقوله يا شيخ سالم .. فالله سبحانه وتعالى قد خلق الناس جميعا وجعل لهم حقا في الحياة .. فلتنزع القذى من عيوننا حتى نرى الحقيقة بوضوح ..

□ □ □

وفي عصر اليوم التالي تشهد المنطقة إقلاع أحد الهليوكبتر .. وتجمع أهل القرية في الساحة

الشرقية .. ليكونوا حلقة من الرقص والإنشاد .. وبدأ «حمدان» يجهز فرسه التي يدور بها حول الحلقة .. ثم يصعد الجبل .. ويعود إلى وسط الحلقة الواسعة ليراقص فرسه على أنغام المزمار ودقات الطبول .. ووقف «ريجون» و «ماريان» في الحلقة وهما مشدودان إلى رقصات الفرس .. وهي تجيء الحاضرين برفع قدميها الأماميتين .. حتى ريجون وماريان .. توقفت الفرس طويلا لتحيتهما .. والتف العربان حول «ريجون وماريان» .. إنهما وجهان جديدان في المنطقة .. وراحت عيون ريجون وماريان تتفحص وجوه الصبية .. فقد كان وجه «آري» المفقود .. ونظرت «ماريان» إلى «ريجون» نظرة ذات معنى .. إنها تعني الصبي المفقود .. هل سعيد .. باسم .. مثل هؤلاء ؟ هل هو قرى البيئة بملامحهم .. ؟ ..

ووسط جو الظلام الذي بدأ يتسلل إلى المكان .. توجه ريجون وزوجته إلى الفندق .. واستلقت «ماريان» على السرير .. في صمت .. بينما راح «ريجون» يتصفح الصحف .. في هدوء وبطء .. تحاولا نسيان بعض التعبيرات .. أخيرا اتجه إليها ليخبرها بشيء ما .. سيستطيع أن يقيم مشروعا سياحيا يتميز عن كل المشروعات .. إنه مشروع يتمشى مع طبيعة المكان .. ستكون سياحة من لون آخر .. سياحة نفسية قبل كل شيء .. وابتسمت «ماريان» .. وعانقته في هدوء بينما نظراتها تتفحص عينيه في عمق ..

□ □ □

عاد الشيخ «سالم أبوسنة» من صلاة الفجر كالعادة .. ليجد زوجته تجوب الدار تتحسس الأماكن بيديها .. فقد أفقدتها السنون بصرها .. وسمعت نداء ..

– ياست الستات .. إن نسيم الصباح منعش .. أما تريدين السير معي في الوادي ؟

– إن السعال يكاد يقتلني يا شيخ ..

– سعال .. أي سعال .. إن هواء الصبح يشق القلب ..

ورابط الشيخ فراش زوجته .. ورفيقة عمر طويل .. فهي الزوجة الثالثة والأخيرة في حياته كان الحديث شائقا .. وتذكرت السيدة أيام العدوان .. يوم سقط طيار إسرائيلي بطائرته على مقربة منها .. وشهر السلاح في وجهها مهددا .. لكنها اكتشفت حيلته .. إنه يريد الأمان .. يريد الطعام والماء .. يومها فاجأته بالحقيقة .. قالت له .. إنك إن كنت تريد قتلي فلن تقتل الآخرين .. ثم ماذا ستكسب من وراء الحرب .. ؟ .. خطفنا أدرك الطيار الحقيقة .. وراح يقص عليها مأساته .. أجل يا سيدتي .. في مقدورك أن تقتليني .. أنا لن أقوى على مهاجمتك .. إنني مرهق .. أكاد أموت جوعا وعطشا .. إن الجرالات داعوني للموت .. والآن أردت أن أنتقم .. بإحراق الطائرة .. لأترك بهذا المكان .. هل لديك ماء وطعام .. وقدمت له كل شيء .. حتى غاب يوما .. وعاد ليقول لي إنه سيقتل نفسه .. هنا .. فقلت له حتى لا تجر القوم إلى انتقام بين جلدتك .. فأسلم قيادك لهم .. وأوجز ألا تعود .. ونظر الطيار إلى في أسى ومرارة .. وحمل ما جدت به عليه من طعام .. وغاب وراء الأفق وعياله تقولان شيئا .. ينبيء عن الثناء .. قال الشيخ – ذكريات .. لقد رأينا وجوها متعددة كلها تحمل مأساة الحرب .. واليوم آن لنا أن نتجول في أي وقت ..

□ □ □

ويسمع الشيخ صوت «حمدان» ذلك الذي نزل من فوق ظهر بعيره .. وابتدر حمدان الشيخ مستوضحا منه وجهة نظره في مرافقة السيدة «ماريان» إلى ديجونة في النقب .. وكانت إجابات الشيخ مطمئنة لحمدان .. إن الشيخ سالم بعيد النظر وله رؤية لما بعد الواقع .. فقد نبأ بالسلام .. ووضع له أصولا كانت محققة لآمال العربان .. وللمنطقة السياسية كلها .. ووضع الشيخ سالم أبوسنة يده على يد «حمدان» قائلا – حمدان .. إن مرافقتك لهذه السيدة اليهودية من أجل عمل خير .. سيذيب أخطاء سنين طويلة كنا نجسدها في عجلتنا .. والآن عاد العقل ليرسم لنا خيوط الواقع .. لقد كنا في غيبة .. لذلك خسر اليهود الكثير وخسرنا نحن أيضا ..

وتقدمت السيدة العجوز التي ذهبت السنون ببصرها من «حمدان» لتقول له .. إنهم كانوا يفضلون الموت انتحارا على الحرب .. وأبلغ ؟ ..

وتقدمت السيدة العجوز التي ذهبت السنون ببصرها من «حمدان» لتقول له .. إنهم كانوا يفضلون الموت انتحارا على الحرب .. وأبلغ مثل على ذلك .. الطيار الذي أحرق طائرته وهبط على مقربة من الجبل .. وجاء سعيا إلى هذا المكان ليجد ماء وطعاما .. بعدها آثر على الانتحار حتى لا يعود لاستئناف الحرب .. إنها حرب خاسرة يا ولدي .. لقد منعته أن يقتل نفسه وقلت له إن الانتحار ليس من شيمة الرجال .. ابق على حياتك يا فتى ..

وبدت «ماري ـ ر» و«ماريان» تتحدران من قمة الجبل وهما تقتربان الدير .. إن كلاً منهما يهودية .. فماري تحيى يهوديتها حتى تعيش حياة هادئة في رحاب القديسة العذراء .. تعيش على القليل من الطعام والماء .. وكانت الراهبات يتعلقن بها .. لأنها إنسانة مؤمنة .. ذات قلب كبير .. تتحرك دائما فيما يشبه الخمس .. وقالت «ماريان» – هل هناك شيء يربطك بهذا المكان يا «ماري» ؟

قالت – نعم .. إن صاحبة الدير هي التي ترتبط به .. إنسانة قديسة عصامية حياتها كانت ملحمة من المعاناة يا ماريان .. فقد تمسكت بالعقيدة حتى الموت .. إنها مثال حي للعشق الإلهي والحب .. وهي كما تعلمين .. مصرية من الاسكندرية .. استشهدت وهي دون العشرين عام ٢٠٧ ميلادية على يد « ماكستوس » الذي قطع رأسها لأنها تمسكت بمسيحيتها وعقيدتها الدينية .. وقد طلب أن يتزوجها حاكم المدينة لكنها رفضت .. وكثيرا ما أنذرها امبراطور روما بإرسال وفود التهديد لها .. لكنها كانت قوية الإيمان حتى إنها كانت تؤثر فيهم فيؤمنون بالمسيح عيسى ..

وتطلعت « ماريان » إلى صورة المسيح على الجدار داخل الدير .. وهو يضع خاتم الخطبة في أصبع القديسة « سانت كاترين » وهو يبدو صبيا .. وألقت نظرات سريعة على الرهبان الجالسين في الدير .. ثم عاد بصرها يتفحص الصورة .. ولاحظت « ماري » إمعان « ماريان » في الصورة التي تشد انتباهها .. فجذبتها بعيدا وراحت تشرح لها ما بدا في مخيلتها من تساؤلات .. قالت ماري – إن الروايات تقول إن القديسة قد خطبت للسيد المسيح .. فقد جاءها في المنام .. وأحست بنوره .. وهو يمديده لها .. قالت ماريان هل كان يريد خطبتها حقا يا ماري ؟

قالت – إن هذه الخطبة .. الرمز العظيم للربط الحقيقي بين العشق الإلهي والتمسك بالعقيدة الدينية المثالية .. بوعي وبصيرة .. فالإنسان بدون عقيدة آلة صماء .. لأن العقيدة نبع الحياة .. والإحساس بالوجود .. ككائن متغير ..

وتناولت « ماريان » منديلها تمسح الدموع التي ملأت مآقيها في هدوء .. وعيناها تتفحصان الرهبان الذين جلسوا في خشوع وقد اتصلت قلوبهم بالله .. إن هذا المكان هو معيار النقاء النفسي من شوائب الدنيا ..

□ □ □

وظهر الشرود على وجه « رعون » وهو بالفندق .. وحركته « ماريان » برفق .. وجلست أمامه وعيناها تكادان تدخلان إلى أعماقه .. قالت ماريان ..

– رعون .. لقد قررت أن أبقى هنا إلى الأبد ..

– وأنا .. لقد اتفقت مع الشيخ سالم ورجال المنطقة أن نقيم مشروعا سياحيا هنا .. مشروعا من لون آخر يختلف عن السياحة في أي بلد .. إنها سياحة تتمشى مع البيئة .. سياحة للروح والجسد معا .. سياحة بلا تزويد تقليدي ..

– حقا .. إن علينا أن نضع أعمالنا في تكساس .. لنقيم مشروعات جديدة هنا .. فلدى العرب أيد عاملة ..

– والخبرة أيضا يا ماريان .. أما سمعت بمشروعات آبار المياه التي ستتدفق في المكان لتزرع مساحات كبيرة من الأرض .. ؟

– حقا .. لكن .. الذي يشغلني هو عودة « آري » ..

– لدي أمل في عودته .. لو كنت أستطيع أن أذهب إلى ديمونة لفعلت من أجله .. لكن .. حمدان هو الذي سيرافقك إلى هناك .. فقد سبق له أن ذهب إليها مرات عديدة ..

□ □ □

قطعت الطائرة الطريق إلى « العقبة » في وقت قصير .. وظلت « ماريان » صامتة وهي جالسة مع « حمدان » .. إنها شاردة إلى « آري » وكيف يكون ؟ .. إن شكله قد تغير حقا .. وأحسا بالحياة في مدينة العقبة .. زحام .. وحركة نشطة .. جنسيات مختلفة من العرب الذين يعملون في مرافق المدينة المطلة على البحر .. وبدا خطان من الأفكار يتحركان في مخيلة كل منهما .. « حمدان » يحمل الواقع العربي متجسدا أمامه .. أما هي .. فتحمل حلما بمستقبل جديد مع ابن مفقود .. المستقبل سيكون في أرض جديدة أرض الواقع الإنساني .. نقطة التقاء أشعة السلام .. والأمن .. والحب .. والتاريخ .. كانت ليلة هادئة .. تلك التي قضياها في العقبة .. وفي الصباح راحت « ماريان » تستعيد حيويتها التي أماتتها الذكريات .. ووقفت أمام المرآة في حجرة الفندق تمشط شعرها على الطريقة اليهودية .. حتى لا يشعر من يقابلها بأنها غريبة .. وهي التسريحة التي اعتادت حبكتها من قبل .. أيام كانا يعيشان في اسرائيل قبل حرب الغفران بسنوات .. وكان معهما الطفل « آري » .. وقطعت الصمت في الطريق الطويل رحما بالسيارة .. قالت :

– حمدان .. هل يمكن العثور على آري ؟

– سوف نفعل المستحيل يا سيدتي .. إن الله يجمع الشتيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا .. ثق في الله يا سيدي ..

□ □ □

سحب من الخيالات يثيرها العقل .. وسط جو الصحراء الساكن .. والركاب ما بين نائم أو ساهم مستغرق في التفكير .. وقطعت « ماريان » الصمت ثانية ..

– حمدان .. ما الذي جعلهم لا يعمرون الصحراء هذه ؟ .. إنهم لم يفعلوا شيئا من أجل المستقبل .. إن هدفهم كان التوسع .. لكن من أجل ماذا ؟ ..

– من أجل الخريطة يا سيدتي ..

– إن الخريطة المزعومة كثيرا ما أقلقتهم يا سيد .. لقد خسروا الكثير ولم يحققوا شيئا للمستقبل ... كان الكلام هامسا بين ماريان وحمدان .. حتى في استراحات الطريق ..

□ □ □

واخذت ملامح المكان تتكشف شيئا فشيئا في النقب الشاسع ..

وقال حمدان

–لقد وصلنا .. علينا أن ننزل بعد قليل ..

راحت الشمس تجنح للمغيب .. وماريان وحمدان يتجهان إلى القرية .. واستوقفهما شخص وراح يلح على سامعيها بكلمات .. كانت ذات معنى .. وأخيرا قادهما إلى المدينة التي تراءت أبنيتها هنا وهناك .. وغرقا في ظلمة الليل .. هل حقا هذه هي ديمونة؟ .. إنها كانت صامتة .. محظورة على أهلها الوحدة .. إن المفاعل الذرى هنا يقتل الكلمة .. والحركة .. فكيف تعود الحركة ؟ ولاذ حمدان بالصمت .. لكنه لم يخش شيئا فمعه تصريح السفر .. تصريح سياحي مثلما تحمل هي ..

وأحست « ماريان » بوطأة المرض .. فلزمت المستشفى لتنام ساعات .. فقد أنهكت أعصابها حتى كادت تسقط من فرط الإعياء .. وبدا « حمدان » قلقا .. إنها رحلة العذاب .. وسط خطين من دموع .. إنه يريد أن يعود بها .. وبالغلام الشاب « آري » .. فالجميع في سانت كاترين يرقبون عودة الصبي .. وجوه متعددة .. منها وجوه سوداء .. إنها تنبيء عن وجود يهود سود هنا .. إنهم أكثرية في هذه المدينة النائية .. وهم حاخامهم الأكبر المعروف ..

في اليوم التالي صحبت « ماريان » حمدان إلى ضواحي المدينة .. وراحت تدق بابا صغيرا .. فانفرج عن كهل عجوز .. راح يتأملها .. لكنها ابتدرته :

– أين آري .. أريد آري ..

وحدجها بنظرات متحيرة ..

– من أنت يا سيدة ..

– إنني والدة آري .. إنه البقية الباقية من حياتي .. ارحم عذابي أيها الحاخام .. إنني أرى في قلوب المتدينين الرحمة ..

وخرج الغلام .. وراح ينظر إلى وجه السيدة .. وإلى حمدان .. وإلى وجه الحاخام متسائلا .. لكن الحاخام قال له :

– هل تعلم أن لك أما اسمها ..

– ماريان .. أنا أمك ماريان يا آري .. لقد تعذبت من أجلك عشر سنوات .. إنها ليست خطيئتي .. إنها خطيئتهم هم .. هم الذين فعلوا بنا هكذا يا آري .. وانحنت « ماريان » أمامه .. وهو صامت يسدد إليها النظرات ..

– آري .. هل تذكر الكلب الأبيض الذي أهديته لك في عيد ميلادك ؟ هل تذكر الإسكافي العجوز صديقك « إيلي » الذي كنت تجلس دائما عنده .. وأهداك أرنبا صنعه لك من الجلد .. فكانت عينا الأرنب زرارين أبيضين .. ؟ .. خذ هذا المنديل يا آري وامسح حبات الرمال التي علقت بساقيك .. وتناول الفتى المنديل .. وأخذ يمسح حبات العرق .. والتراب الذي علق بوجهه .. وراحت تقبل ماريان قفاها .. في شوق .. وقال آري :

– ولماذا تركتني هذه السنوات .. ؟

– إنها ظروف الحياة هنا يا آري .. إن والدك يتقطع قلبه حزنا عليك .. والآن عد معي .. إنه على مقربة من هنا .. إن عودتك .. هي عودة الحياة لنا يا آري .. ستكون غدا جديدا لنا ..

– أين هو ؟ .. هل حقا ما تقولين ؟

– على مقربة من المكان .. إنه لم يقو على القدوم .. وصحبني هذا الرجل العربي الشهم .. ! إنه حمدان .. آري .. إن الحياة قد تغيرت .. وستغير يا آري .. الحياة ستكون لك من بعدنا .. قل له أيها الحاخام .. قل له إن الشمس ستشرق دائما ..

وودع الحاخام الفتى في رفق .. ومسح على كتفيه بعبارات الثقة والأمل .. والدعوات وقالت ماريان – ماذا أقدم لك أيها الحاخام الأعظم .. فلقد فعلت الكثير .. وقال الحاخام إن خير ما تقدمينه لي هو أن تعلمي هذا الغلام كيف يحيا مع المستقبل .. فالحياة لها معان كثيرة ..

□ □ □

وتناول حمدان يد الفتى .. بينما تناولت الأم اليد الأخرى .. ليعودوا إلى حيث توجد الحياة الجديدة .. حياة من لون آخر .. وذات طابع جديد .. لينظروا إلى العالم من فوق قمة المستقبل مع رؤية الغد □